وهكذا فإنك تجد فى هذا الفن – حسن التعليل – الشئ وضده ما دام مصدره التخييل وإنكار الواقع.

ولذلك فإنك لا تجد شيئاً من هذا فى الأساليب الجادة كالقرآن الكريم وإنما مجاله عند الشعراء المتملحين المتظرفين. هو خدعة حيث تستظرف الخدعة ودعابة حيث تحمد الدعابة.

هذا .. وإن كنت قد أطلت عليك فى (حسن التعليل) فليس لى عذر إلا حسن التعليل.

* * *

٥ - المبالغة

قال أبو نواس يمدح هارون الرشيد:

وأخـــفت أهل الشـــرك حـــتى أنه

لتـــخـــافك النطف التى لم تخلق

والمعنى: أن الممدوح قد جاهد المشركين وأنزل بهم من العذاب ما أذهب صوابهم وأحل بهم الذعر الشديد منه. لدرجة أن خوفهم منه لم يقتصر على الأحياء. بل تخطاهم إلى ما سوف يلد من ظهورهم من ذريات، يعنى أن الجيل المعاصر له قد خافه وحذره وأن الأجيال التى لم تخلق قد حدث لها نفس الشعور من الحذر والرهبة.

إذا تأملت ما أراد الشاعر أن يصف به ممدوحه، وجدت قسماً منه ليس بمنكر ولا بمستغرب، وهو إخافة الأحياء من أهل الشرك المعاصرين للممدوح. ووجدت قسماً آخر منكراً لا سبيل إلى إمكان وقوعه، وهو إخافة الأجيال التى لم تخلق بعد وهذا واضح.

ولذلك فإن للنقاد موقفاً من قول أبى نواس هذا، وكل ما كان على نهجه،

obeikandl.com

فهم لم يرضوا هذا النهج وأنكروه وحكموا بأن الشاعر تجاوز فى قوله هذا حد المألوف والمعقول.

وجاء علماء البلاغة وسموا مثل هذه الصور مبالغة وفصلوا القول فيها تفصيلا. عرفوها وحللوها وقسموها ومثلوا لها. وقبلوا بعضها وردوا بعضها. فهيا بنا نستثمر لحيظات فى معرفة تلك الأمور:

ما هى المبالغة :

هى أن يدعى لوصف بلوغه فى الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً لئلا يظن أنه غير متناه فى الشدة أو الضعف (١).

وشرح هذا التعريف غير خاف عليك إذا تأملت قول أبى نواس السابق فإن فيه وصفاً هو إخافة أهل الشرك وقد ادعى الشاعر لهذا الوصف بلوغه فى الشدة حداً مستحيلاً حيث أوقع أثره على الأجيال التى لم تخلق بعد. والمقصود من هذا الإدعاء أن الوصف المراد إثباته قد فاق فى الموصوف كل حد معروف.

أما بلوغه فى الضعف فكقول الشاعر :

كفى بجسمى نحولاً أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

أراد الشاعر أن يصف جسمه بالنحول والضعف. وأن وصف جسمه به بلغ فيه حداً مستحيلاً. فعلق رؤيته على مخاطبة الناس. وهو لا يرى إذا لم يتكلم فإن السمع يحدد مكانه إذا سمعه يتكلم فتهتدى العين بإرشاد السمع إلى مكانه. وهذا الوصف بلغ حداً مستحيلاً كما ترى. والهدف منه أن النحول عند الشاعر بالغ كل مبلغ غير معهود.

وبعد وثوق فهمك لمعنى المبالغة فتعال معى نخطو خطوة أخرى معها فى بيان أقسامها ومعرفة المقبول والمردود منها.

---

(١) انظر شروح التلخيص ص٣٥٨ والإيضاح حـ٢ ص٣٦٥ طبع لجنة من أساتذة الأزهر.

أقسام المبالغة :

قسم البلاغيون المبالغة إلى ثلاثة أقسام على أساس الوصف المعتمد فيها. فإليك هى :

١-التبليغ [١] : وضابطه أن يكون الوصف المعتمد فيه جائز الوقوع عقلاً وعادة يعنى : أن تحققه غير ممتنع. ومن أمثلته قول امرئ القيس :

فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

يريد امرئ القيس أن يصف فرسه بالمهارة وخفة الحركة فقال أنه استطاع أن يدرك ثوراً وبقرة وحشيين فى جولة واحدة دون أن يصيبه إعياء أو تظهر عليه علامة من علامات الإجهاد لدرجة أنه لم يعرق وهذا معنى قوله لم ينضح بماء فيغسل. إذ أن الشأن أن يكون ذلك فى مثل هذه المواقف.

والوصف المدعى ثبوته هنا على هذا الوجه لا يمنعه العقل، ولا هو ممتنع فى العادة.

ومنه قول المتنبى :

وأصرع أى الوحش قفيته به وأنزل عنه مثله حين أركب

يقول : أن فرسه قوى مدرب على أعمال الصيد. فإذا ركبه من أجله استطاع أن يدرك به أى فريسة أرادها ثم يؤوب وينزل عنه وهو فى حالة من النشاط والقوة مثلما ركبه ابتداء.

وهذا المعنى ممكن – كذلك – عقلاً وعادة. فهو تبليغ مثل سابقه.

وقال ابن الرومى يهجو بخيلاً :

لو أن بيتك يا ابن يوسف ممتل أبراً يضيق بها فناء المنزل

---

(١) التبليغ فى اللغة : التوصيل المجرد دونما زيادة أو نقص. والمناسبة ظاهرة بين المعنيين اللغوى والاصطلاحى.

وأتاك يوسف يستعيرك أبرة .. ليخيط قد قميصه لم تفعل (١)

يبالغ ابن الرومى فى وصف مهجوه بالبخل .. والمعنى الذى أراد إثباته ليس ممتنعاً لا عقلاً ولا عادة. فهو تبليغ مثل نظيريه.

وقال حسان بن ثابت يمدح قوماً بالكرم :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل (٢)

المعنى : أن الممدوحين يغشاهم كثير من الناس ولهذا فإن كلابهم لا تهر على أحد مقبل لأنها لم تر فى ذلك غرابة بل هو شئ مألوف. ومن طباع هؤلاء القوم ألا يسألوا عن أى شخص مقبل من هو ؟ ولماذا جاء. بل دورهم مفتحة الأبواب للجميع.

وهذا المعنى – كما ترى – جائز عقلاً وعادة. فهو – أيضاً – تبليغ كنظائره السابقة.

وروى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه زار صديقاً له مريضاً فمرض الشافعى إشفاقاً عليه. فلما بل صديقه من مرضه ذهب لزيارة الإمام الشافعى، فلما رآه شفى من مرضه، وزال عنه ما كان يجده فأنشأ يقول :

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذرى عليه

وأتى الحبيب يعودنى فشفيت من نظرى إليه

فى هذين البيتين مبالغة من النوع الأول – التبليغ – لأن المعنى الذى أراد أن يبالغ الإمام فى إثباته – وهو الحب الشديد والإخلاص النقى – جائز الوقوع عقلاً وعادة، بل هو منصوص عليه باعتباره الشعور الأسمى الذى يجب أن يتحلى به المؤمنون حيث يقول سيد الخلق ﷺ :

(مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه

---

(١) الصبغ البديعى (٤٨٤) د. أحمد موسى

(٢) سر الفصاحة لابن سنان : ص٢ شرح عبد المتعال الصعيدى.

عضو. تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) وحسبك هذا من تبليغ فبنا إلى النوع الثانى:

٢- الإغـــراق :

وضابطه أن يكون الوصف المعتمد فيه جائزاً عقلاً، وممتنعاً عادة. يعنى جائز من وجه. وممتنع من وجه آخر حسبما تقدم فى الضابط.

ومن شواهده قول الشاعر :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث حل

والمعنى : أننا نكرم الجار فى كل حال سواء بقى على جوارنا أم مال عنا إلى جهة أخرى يزول معها معنى الجوار.

وهذا الوصف – كما هو ظاهر – غير ممتنع من جهة العقل، وإن كان ممتنعاً فى بعض العادات [١].

ومن شواهده أيضاً قول الشاعر العربى يصف سحاباً بالقرب من سطح الأرض:

دان مسف فويق الأرض هيد به يكاد يلمسه من قام بالراح

لأن قرب السحاب من الأرض حتى يبلغ هذه الدرجة التى ذكرها الشاعر ليس ممتنعاً عقلاً وإنما هو ممتنع فى العادة.

ومن الإغراق يقول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

يريد أن يقول أن بنى تميم لهم تأثير فى الناس فبالغ فى هذا المعنى وادعى أنهم إذا غضبوا على إنسان فإن الناس جميعاً ينزلون على حكمهم. وهذا المعنى جائز من جهة العقل وإن امتنع من جهة العادة.

---

(١) لابد من هذا القيد. لأن بعض الناس يواصلون من كان جاراً لهم تمسكاً بما كان بينهم من عشرة وقوة الروابط. فأولى أن يدرج هذا الشاهد ضمن قواعد التبليغ. هذا رأيى.

وقال الفرزدق أو الأخطل يهجو جرير: [1]

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم : بولى على النار

يبالغ الشاعر فى هجاء قوم جرير ووصفهم بالبخل. والمعنى الذى أراد إثباته (بولى على النار) جائز عقلاً، ممتنع عادة.

ومن شواهد الإغراق قول الشاعر :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا[2]

٣-النوع الثالث والأخير من المبالغة هو (الغلو) وضابطه أن يكون الوصف المدعى فيه غير ممكن لا عقلاً ولا عادة.

ومن أبرز أمثلته قول أبى نواس السابق :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التى لم تخلق

ومن شواهده كذلك قول بشار بن برد :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً

لأن هتك حجاب الشمس أو قطرها الدم مستحيل عقلاً وعادة ولذلك كان كلام بشار هنا غلواً وسرفا.

ومنه كذلك بعض قول الأندلسيين :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكـــم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنـت النبى محمـــد وكأنما أنصـــارك الأنصـــار

ولذلك لأن الشاعر بالغ فى وصف الممدوح، وهو وإن لم يخالف العقل فيما ادعاه فإنه قد خالف الشرع مخالفة شنيعة. ومخالفة الشرع فيما جاء به من أصول وعقائد كمخالفة العقل فيما استقر عنده من قوانين وقواعد وقد جانب الشاعر الصواب فى الآتى :

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص١٣٥ .

(٢) المراد بالدهر أهله. وليس ممنوعاً عند العقلاء ما ادعاه وإن لم تجربه عادة.

أ – أثبت الشاعر أن إرادة الممدوح فوق إرادة الأقدار. وهذا شطط بالغ.

ب – أثبت الشاعر للممدوح صفة لا يوصف بها سوى الخالق سبحانه.

جـ – شبه الشاعر الممدوح بالنبى عليه السلام. وهذا وإن كان أخف من سابقيه.

فعير مسلم للشاعر للفارق البعيد المدى بين المشبه به والمشبه. والحق أن مخالفة الشرع فى مثل هذه القضايا لأكثر غلواً وإسرافاً من مخالفة العقل فيما استقر عنده من قواعد.

وشبيه بهذا قول الآخر:

لو كان علمك بالإله محصلاً فى الناس ما بعث الإله رسولا

أو كان لفظك منزلا ما أنزل القرآن والتوراة والإنجيلا

الشاعر يقرر فى هذين البيتين:

أ – أن علم الممدوح لو كان محصلاً عند الناس لأغنى عن إرسال الرسل فى الهداية والإرشاد.

ب – ولو كانت أحاديثه وألفاظه منزلة لما كانت هناك حاجة إلى إنزال كتب من السماء.

وأذكر أن أحد الشعراء تمدح رجلاً بنى قصراً فأجمله وأحسنه فقال الشاعر فى حفل الافتتاح:

شاد ابن داود العجائب فوقها فتهدمت وبنيت ما لم يهدم

يريد: أن سليمان بن داود النبى صاحب الملك الموهوب شاد العجائب فوق الأرض ولكنها تهدمت بتقادم الدهور أما أنت أيها الممدوح فقد بنيت ما هو خالد غير متهدم وإن تقادم عليه الدهر.

ولكن هذا المعنى لم يرق أحد النقاد لأن الشاعر رفع الممدوح فوق منزلة نبى من الأنبياء. وأقترح أن يعدل البيت فيصبح هكذا:

شاد الشياطين العجائب فوقها فتهدمت ، وبنيت ما لم يهدم

ثم قال : فإن أبى الشاعر أن يقارن بين ممدوحه وبين الشياطين أبينا نحن أن يقارن بين ابن داود – وهو نبى – وبين ممدوحه وهو من عامة الخلق (١).

فهذا النقد كان مرجعه إلى ما استقر من أصول الشرع وليس للعقل أو العادة فيه مدخل.

رأى النقاد فى المبالغة :

تقدم أن المبالغة ثلاثة أنوع : تبليغ ، وهو ما كان الوصف المدعى فيه ممكناً عقلاً وعادة.

وإغراق وهو ما كان الوصف المدعى فيه ممكناً عقلاً لإعادة، وغلو ما كان الوصف المدعى فيه غير ممكن لا عادة ولا عقلاً، أو كان الوصف المدعى فيه غير جائز شرعاً وإن لم يمتنع عقلاً. وقد تقدمت أمثلة ذلك كله. وللنقاد من المبالغة موقف إليك إيجازه:

١– فريق لا يتحرج منها ويجد فى التعبير بها وسيلة لعمل الخيال والإبداع فى العمل الفنى، ومن هؤلاء الشاعر البحترى الذى رفع لواء إطلاق الشعر من الالتزام بقواعد العقل وقوانين المنطق ويضمن هذا قوله المعروف:

كلفتمونا حدود منطقكم فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه

وشعار هذا الفريق أن الشعر يكفى فيه التخييل والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل دون أن يلتزم فيه الشاعر حدود العقل أو المنطق وعلى هذا ساغ لهم أن يقولوا: خير الشعر أكذبه.

٢– وفريق يرفض المبالغة مطلقاً ويذهبون إلى أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل وموعظة تروض جماع الهوى. وتبعث على التقوى، وتبين موضوع القبح والحسن فى الأفعال. وعمدتهم فى

---

(١) اطلعت على هذه القصة منشورة فى مجلة الإسلام منذ عشرين عاماً.

ذلك ما ورد من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رفع من شأن شعر زهير لأنه كان لا يمدح الرجل إلا بما هو فيه. ولذلك قالوا: أن خير الشعر أصدقه. وتمثلوا بقول الشاعر:

وأن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا (١)

٣ – وفريق يفصل. فيقبل كل مبالغة قرنت بما يقربها من الإمكان والصحة. ويرد كل مبالغة خلت مما يقربها إلى الإمكان والصحة. وعلى هذا النهج فأنهم نظروا فى المبالغة وانتهوا إلى ما يأتى:

أولاً: أن المبالغة فى النوعين الأولين: التبليغ والإغراق مقبولة ولا بأس بها فى العمل الأدبى شعره ونثره. لأن مدعاهما ممكن الوقوع عقلاً وعادة أو عقلاً فقط.

ثانياً: أن النوع الثالث، وهو الغلو، مرفوض لما فيه من الإفراط والخروج عن المألوف، إلا إذا جاء على الوجوه الآتية فيقبل، وهى:

أ – أن يقترن بما يقربه من الإمكان والصحة كان يشتمل على لفظ (كاد) كقول الشاعر يصف فرسه بالسرعة:

ويكاد يخرج سرعة من ظله لو كان يرغب فى فراق رفيق

وذلك لأن خروج الفرس من ظله أمر مستحيل عقلاً وعادة. ولكن الشاعر خفف من غلو المبالغة بلفظ (يكاد) ولفظ (لو) فجاءت مبالغته مقبولة.

وكذلك قول الشاعر يمدح كرم كريم ويبالغ فيه فيقول:

يكاد إذا ما الكلب أبصر ضيفه يكلمه من حبه وهو أعجم

يعنى أن كلب الممدوح لشدة ألفه لضيوفه إذا أبصر واحداً منهم قادماً نحو داره. فإن الكلب يكاد يكلمه من حبه له. وهذا ممتنع عقلاً وعادة بيد أن الشاعر أتى بلفظ يكاد لدفع تلك الاستحالة. فقبلت مبالغته.

---

(١) راجع أسرار البلاغة ص٢١٨ شرح رشيد رضا.

ومثل (كاد) لفظ (لو) كقول البحترى :

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

فسعى المنبر ممتنع فى حكم العقل، وكذلك العادة. ولذلك أتى الشاعر بلفظ (لو) وهى حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط.

وقال ابن ميادة يمدح قيساً :

ولو أن قيساً عيلان أقسمت على الشمس لم يطلع عليك حجابها (١)

فإن حجاب الشمس يدور فى فلك منظم خاضع لسنن الله فى الكون، فليس فى طاقة أحد إعاقته. ولهذا كان قول ابن ميادة هذا من الغلو لكن (لو) خففت من الإفراط فيه فعد مقبولاً.

(ب) – وتقبل المبالغة إذا تضمنت نوعاً حسناً من التخييل (٢). ومنه قول المتنبى يصف سير أفراس:

عقدت سنابكها عليها عثيراً لو تبتغى عنقاً عليه لأمكنا (٣).

المعنى الذى أراد أن يثبته الشاعر خارج عن المعهود عند العقلاء. فهذا لن يكون والأصل فيه أن يرد لما فيه من غلو وإحالة ولكن العلماء لم يروا فيه بأساً وشافعه عندهم أنه قد تضمن نوعاً لطيفاً من حسن التخييل وفسروا حسن التخييل فيه بأن الشاعر أوقع فى الوهم أن الغبار تكاثف فى الفضاء حتى صار مثل الجبال، فقربه من القواعد المسلمة فسلم له مدعاه.

قالوا: ومن هذا النوع قول الأرجانى يصف طول الليل :

وخيل لى أن سمر الشهب فى الدجى وشدت بأهدابى اليهنة أجفانى (٤)

---

(١) انظر النقائض فى الشعر العربى – للأستاذ أحمد الشائب.

(٢) انظر شروح التلخيص جـ٤ ص٣٦٣ .

(٣) سنابك الخيل حوافرها. عثيرا: الغبار المتطاير من سيرها. عنقا: سيرا. يعنى أن الخيل أطارت بحوافرها غباراً كثيراً تراكم فوقها حتى أصبح أرضاً أخرى يمكن السير عليها لمن أراد.

(٤) يعنى أن الكواكب سمرت فى الظلام فهى لا تتحرك. كنى بذلك عن طول الليل. وأن عينى الشاعر ربطت فى الشهب بأهدابها.

الشاعر كنى عن طول الليل بالشطر الأول وكنى عن سهره بالشطر الثانى يشكو طول الليل والسهر. والتركيبان اللذان كنى بهما مدعاهما محال.

لكنهم قبلوا قول الشاعر لأنه تضمن تخييلاً حسناً، وقد صرح بذلك فى صدر البيت (وخيل لى) والأولى أن تعتبر المبالغة هنا بأنها قرنت بما يقربها من الإمكان لأن الشاعر بمطلع بيته هذا قد دفع عن نفسه كل حرج.

جـ- قالوا، ومما يقرب المبالغة المغالى فيها من المقبول إخراجها مخرج الهزل والخلاعة [1]. وساقوا على ذلك مثالاً هو قول الشاعر:

أسكر بالأمس أن عزمت على الشرب غدا أن ذا من العجب

ومدعى الشاعر مستحيل لما فيه من تقدم المعلول على العلة. فإن الشرب علة فى السكر، ومحال أن يحدث السكر قبل الشرب فكان حق هذا المعنى أن يرفض. لكنهم قبلوه على ما أسموه من أن المبالغة فيه جاءت على قصد الهزل والخلاعة يعنى أن الشاعر لم يقصد ادعاء حصول مضمونها وإنما أراد منها إضحاك السامع ومداعبته.

ولك أن تعد على طريقتهم فى ذلك قول أبى نواس يصف قدراً صغيراً [2]:

هى القدر قدر الشيخ بكر بن وائل ربيع اليتامى عام كل هزال
وتغلى بذكر النار من غير حرها وتنزلها عفواً بغير جعال
يغص بحيزوم الجرادة صدرها وينضج ما فيها بعود خلال

يقول: أن هذه القدر لصغرها إذا وضعت فيها جرادة اختنق صدرها لضيقها ويمكن إنضاج ما يوضع فيها بعود ثقاب. بل هى تغلى بمجرد أن تذكر النار ولا حاجة إذن لوضعها فوقها.

---

(١) شروح التلخيص حـ٤ ص٣٦٥.

(٢) الصناعتين لأبى هلال (٢٨٥) والقدر إناء من الفخار ينفخ فيه اللحم.

ومثله قول الآخر يصف أنف رجل :

لقد مر عبد الله فى السوق راكباً له حاجة من أنفه ومطرق
وعنت له من جانب السوق مخطة توهمت أن السوق منها ستغرق
فأقذر به أنفا وأقذر بربه على وجهه منه كنيف معلق (١)

وصف مخطته بالكبر حتى خيل إليه أن السوق سيتفرق منها. وهذا مستبعد كما أثبت الشاعر أن على وجه الرجل كنيفاً معلقاً من إفرازات أنفه !.

وبالغ شاعر آخر فى وصف رجل كان يبطئ فى القراءة فقال :

إذا قرأ العاديات فى رجب لم ينه (٢) آياتها إلى رجب
بل هو لا يستطيع فى سنة يقرأ تبت يدا أبى لهب

العاديات وتبت يدا أبى لهب سورتان من قصار السور، لا تستغرق تلاوتهما سوى هنيهة. والشاعر يدعى أن موصوفه يقرأ الأولى فى سنة قمرية كاملة. وليس هو بمستطيع قراءة الثانية فى حول كامل. وهذه دعوى غير مقبولة بأى مقياس تعمله فيها ولكن الشاعر أخرج كلامه فيها مخرج التلمح والتظرف ولذلك قبلت دعواه.

ولعلك لاحظت معى أن المبالغة بأنواعها الثلاثة يكثر ورودها فى مقام المدح والفخر أو الهجاء والذم. حيث يكون هدف الشاعر أو الأديب فى هذه المقامات إبراز المعنى وتفخيمه فى أقوى صوره الممكنة وغير الممكنة.

المبالغة فى أسلوب القرآن :

رأيت فيما تقدم تحديد معنى المبالغة عند البلاغيين، ووقفت على تقسيماتها عندهم وعلمت المقبول وشرطه، والمرفوض وسببه عند النقاد وعلماء

---

(١) نفس المرجع.

(٢) البيتان فى الصناعتين (ص٢٨٥) وفيه (لم تفن آياتها إلى رجب) بدل (لم ينه ..). وتسلط الفناء على الآيات غير صحيح لذلك وضعت مكانه الكلمة المذكورة.

البلاغة. وبعد ذلك التحديد والتقسيم نظروا فى أسلوب القرآن واستخرجوا منه صوراً ينطبق عليها حد المبالغة المذكورة، ولم يتورعوا أن يطلقوا على تلك الصور ما أطلقوه على غيرها من أدب البشر.

فهذا أبو هلال العسكرى يورد قوله تعالى ﴿ **وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** ﴾ تحت المبالغة المسماة عندهم بالغلو ويذكر قبلها حد الغلو فيقول: الغلو تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها، كقوله تعالى [1]: ويذكر الآية المتقدمة ثم يذكر صوراً أخرى من أسلوب القرآن كقوله تعالى ﴿ **وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ **وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ** ﴾.

والقاضى أبو بكر الباقلانى يذكر الغلو والإفراط فى الصفة ويقول بعد التمثيل له من الشعر: ومن هذا الجنس فى القرآن: ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ** ﴾.

وذكر الخطيب القزوينى قوله تعالى: ﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** ﴾ على أنه نوع من الغلو المقبول [2].

وتابعهم شراح التلخيص فأدرجوا هذه الآية تحت الغلو المقبول. وفسر بعضهم سر قبوله بأن المبالغة فيها قد اقترنت بما يقربها من الصحة ولم يرض هذا التعبير بعض الشراح فقالوا: كان ينبغى أن يقول: أدخل عليه ما يخرجه عن الامتناع تأدباً إذ صحة كلام الله لا مزيد عليها [3].

---

(١) الصناعتين ص٢٨٠ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى (٧٦ – ٧٨) تحقيق السيد أحمد صقر.

(٣) الإيضاح حـ٢ ص٣٦٦ .

وما أخال هذا الصنع من البلاغيين إلا مجاراة لما استقر عندهم من قواعد اصطلحوا عليها فى شأن المبالغة. لأنه ليس من الهين إطلاق (الغلو) على أى تركيب فى أسلوب القرآن الحكيم. وكل ما ورد فى القرآن مما أطلقوا عليه اسم (الغلو) أو الإفراط فى الوصف يمكن فهمه على أسس أخرى تنأى به عما لا يليق بالنسبة لكلام الحكيم الخبير.

خذ إليك (مثلاً) قوله تعالى: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ...** ﴾ تجد مقدمة الآية قد مهدت السبيل وهيأت الأذهان لما وصل إليه القوم. عدوهم جاءهم من جهتين غير معهودتين فى حروب ذلك العصر وهما الفوقية والتحتية. وإذا أمكن مجيئهم من هاتين الجهتين فما أسهل مجيئهم من سواهما وهى الأمام والخلف، واليمين والشمال فهاهم قد طوقهم عدوهم فى حركة سريعة محكمة. وكاد المسلمون أن يسقطوا فى أيديهم دهشة واستغراباً. وبلغ الشعور بالاضطراب عندهم كل مبلغ. ووصل بهم الحال إلى أن زاغت أبصارهم من أثر الانفعال النفسى العنيف المفاجئ. وفى هذه إشارة إلى ما يداخلهم من الخوف حتى زاغت أبصارهم. وزيغ البصر ميله وانحرافه عن الاستقامة.

فإذا تأملت قوماً هذه حالهم: حركة تطويق سريعة تلفهم ويقعون فى أيدى عدوهم وتدور أعينهم فى رءوسهم ويصيرون ما بين مبصر تتشابه عليه المرئيات ومكفوف عن الأبصار وهو ينظر.!

هذه الأوضاع أسلمتهم إلى هلع قاتل ارتجفت من أجله قلوبهم وتسارعت ضرباتها حتى فارقت القلوب مقارها خوفاً وهلعاً. فهل إذا قيل بعد ذلك: ﴿ **وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** ﴾ يصبح هذا التعبير الصائب الحكم غلواً وسرفاً وإفراطاً ؟!.

وهل لاحظ الذين أطلقوا على هذه الصورة الأدبية بأنها غلواً ما يصاحب حالات الذعر والاضطراب الشديد من حبسة فى الحلق تمنع من الكلام ويشعر

صاحبها بحالة اختناق فى الزور مصاحباً لها وتتأثر الحبال الصوتية بها أيما تأثر فتتغير نبرة الصوت أو تنحبس.

أن هذه الصورة ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ هى التى تكشف لنا عن الشعور النفسى الرهيب الذى أصيب به القوم دون أن يكون المراد أن القلوب لشكلها الحسى هى التى صعدت واحتلت مكاناً فى الحناجر. وإنما كانت أثار تلك الحالة القلقة العنيفة المضطربة التى حلت بالقلوب، والقلب هو مركز الأمان، والاستقرار، فإذا فقد القلب سلطانه فما بقى لدى الإنسان شئ.

يقول زهير فى هذا المعنى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

والتعبير باضطراب القلب للدلالة على الهلع والجزع سمة من سمات أسلوب القرآن قال سبحانه فى وصف الحالة التى انتابت أم موسى عند إلقائه فى اليم :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

عبر عن جزعها واضطرابها بفراغ الفؤاد واضطرابه حتى كادت أن تلقيه من جوفها لشدة ما حل بها من إشفاق وأسى. وعبر عن سكونها واستقرارها بالرباط على القلب.

والقرآن الكريم يذكر القلب ولا يريد منه شكله الحسى وإنما يريد منه معناه باعتباره مركزاً للعقيدة وما يصدر عنها من حب وكره، وأمن وخوف، ووعى وغفلة. وهدى وضلال.

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ فليس المراد بالقلب هنا كتلة اللحم والدم، بل المراد به الوعي والفقه والعلم. إذ لا يصح نفى القلب عن حى. وقال سبحانه ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾، والمراد من القلوب هنا الآراء والعقائد والاتجاهات وقد ذكر الراغب أن المراد من القلوب فى قوله تعالى :

﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ يعنى: الأرواح [1]. ويكون المعنى أنهم كادوا يلفظون أرواحهم من شدة ذعرهم وهلعهم. ولو أن الذين حكموا على هذه الصورة بأنها غلو أعملوا فكرهم فى معناها لما تورطوا فيما تورطوا فيه، وكان يكفيهم أن يذهبوا مذهب الراغب فى توجيهها فيريحون ويستريحون.

وإذا نظرت إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ وقد عدوه من الغلو إذا نظرت فيه نظرة جادة واعية بان لك خطأهم فى هذا السلوك. ويكفيك أن تفهم أن الآية الكريمة يمكن فهمها على الوجه الآتى:

أن الكافرين قد امتلأت قلوبهم حقداً على الرسل والهداة. وأخذوا يضمرون فى أنفسهم نحو المؤمنين كل صفات اللؤم والمكر، فحملوا فى أنفسهم العداء المدمر ولو خلى بينهم وبين ما يريدون فترجموا ضغائنهم إلى عمل لفعلوا الكثير ولو سلطوا على الجبال الراسيات بدافع من أنفسهم الحاقدة الماكرة لآزالوها إن كان فى ذلك شفاء لغيظهم [2].

وقال سبحانه مشبهاً أعمال الذين كفروا:

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا . . . ﴾.

تأمل التصوير الرائع الذى عرضته الآية الكريمة، والظلال الكثيفة التى سيطرت على الجو النفسى فهناك ظلمات فى بحر لجى، هذه واحدة.

ويغشى هذا البحر المظلم موج. وهذه ثانية.

وفوق هذا الموج موج آخر يعلوه. وهذه ثالثة.

وفوق هذا الموج الذى يعلو الموج الأول سحاب يمده ويغذيه. وهذه رابعة.

---

(١) المفردات ص٤١١.

(٢) ما ذكرته فى معنى الآية أحد وجوه هو أرجحها فيما أرى مع التصرف فى الصياغة بما

ثم تأمل ذلك الإجمال الجامع لشتات ما تقدم: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾!.

تخيل هذا الجو الذى رسمته لك هذه الريشة المبدعة الآسرة. وسل نفسك هل يمكن أن يرى الإنسان نفسه فى هذا الجو الحالك السواد ؟ والجواب – إذا أنصفتك نفسك – لا.

فإذا قال لك القرآن بعد هذا ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أيكون فى هذا القول غلو وإفراط.؟

أم هو حقيقة أسلمتنا إليها مقدمات صادقة ؟ لا بل هى الحقيقة التى يدركها الوعى ولو لم يصرح بها القرآن.

أما آية الزيت المضئ التى أجمعوا على أنها من الغلو المقبول – سامحهم الله – فإن الغلو أن يقال أن فيها غلواً.

فمراد الله – والله أعلم – من هذه الآية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ وصف الزيت بالصفاء والنقاء. وقد ثبت لكثير من الأجسام أن تضئ إذا ما نظرت إليها فى الظلام.

خذ إليك مثلاً مؤشرات بعض آلات ضبط الوقت – الساعات – فإنك تستطيع أن تعرف من النظر إليها وأنت فى غرفة مظلمة تماماً إلى أى الأوقات تشير.

وخذ إليك مثلاً آخر بعض (المسابح) تجدها مصنوعة من حبات هى أكثر ما تكون لمعاناً فى أشد حالات الإظلام.

والسر فى هذه وتلك هو الصفاء الخالص.

وكذلك فإن الزيت الموصوف فى الآية إنما هو زيت صاف نقى لا مثل الزيوت الأخرى. ولشدة صفائه يكاد يضئ – يعنى يقارب درجة الإضاءة وإن لم يضئ حقيقة حتى ولو لم تمسسه نار.

والمعنى فى إيجاز : أنه زيت مقارب للإضاءة لصفاته وليس مضيئاً حقيقة. بل فيه نوع من اللمعان.

فهل فى هذا غلو وإفراط . ولماذا يقولون أن هذا الغلو مقبول لأنه اقترن بلفظ يكاد. فهل اطلعوا على أن التعبير كان فى الأصل زيتها يضئ ولو لم تمسسه. ثم أدخل عليه ﴿ يَكَادُ ﴾ للتخفيف من الغلو، أم أن الآية عرفت بصورتها كاملة. فكانت حقيقتها هى الخلو من الغلو ؟

وصفوة القول : أن بلاغة القرآن لها خصائصها وسماتها التى تميز بينها وبين غيرها من الأساليب. ونحن – أحياناً – نسئ الفهم عند تحليل بعض صورها، ويتبع الخطأ فى الفهم خطأ آخر فى التسمية. وهما وإن حسنت النية، لا يليقان بهذا البيان المعجز الذى يجب أن يقاس عليه ما سواه، لا أن يقاس هو بما سواه.

فليس فى القرآن تعبير جامح يمكن أن يطلق عليه اسم (الغلو) إخضاعاً له للضوابط التى ابتدعها البديعيون. ولا يستطيع منصف أن يضع قوله تعالى ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ بازاء قول الشاعر:

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التى لم تخلق

فى أن كلاً منهما يدعى معنى محالاً فى حكم العقل والعادة. فشتان ما بين النصين ولا يسوقنا إلى مثل هذا الخلط إلا جهلنا بقيمة التعبير القرآنى وما يستشف منه من أسرار وحكم. وصدق الله إذ يقول فى وصف كتابه:

﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

تأكيد المدح بما يشبه الذم

قال النابغة الجعدى يمدح :

فتى كملت أخلاقه غير أنه كريم فما يبقى من المال باقيا

وصف الشاعر الممدوح بكمال الأخلاق ، وهذا وصف جامع لمعانى

الفضيلة. ثم وصف فى الشطر الثانى من البيت بأنه كريم ينفق ما لديه من مال دون أن يبقى منه شيئاً.

لكن الشاعر سلك فى هذا الوصف مسلكاً فيه مسحة من خداع ومهارة. وذلك لأنه أثبت فى صدر البيت كمال الأخلاق للفتى الممدوح وهو وصف جامع لمعانى النبل والمروءة. وأنت حين تقرأ هذه الجملة (كملت أخلاقه) فلست فى حاجة إلى أن تنتظر كلاماً آخر يقال يفيدك جديداً يوصف به هذا الفتى الكامل الأخلاق.

ولكنك حين تسمع (غير أنه) كان ذلك إيذاناً بأن هذا الفتى الكامل الأخلاق له بجانب هذا الكمال بعض الطباع أو الصفات التى تؤخذ عليه وتحسب من سئ السلوك. وإن ندر وقوعها منه لكنك على كل حال تكون فى لهفة لمعرفة تلك الصفات السواقط ما هى ؟

فإذا سمعت قوله (كريم فما يبقى من المال باقياً) تبين لك أنك كنت مخدوعاً وأن شاعرك نقلك فى سرعة البصر من مكان إلى مكان وإذا بك واقف فى مكانك لم تتحرك.

كنت تنتظر أن يثبت الشاعر للممدوح صفة ذم بعد أن أثبت له صفات المدح جملة. لأن ذلك هو شأن (الاستثناء) غالباً لأنه استدراك والمستدرك من المدح ذام لا محالة. وذلك ما لم يفعله الشاعر فقد أوهمك أنه سيذم بعد أن مدح. فإذا به مادح بعد المدح. وهذا العمل هو الذى يطلق عليه البديعيون تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وعرفوه فقالوا : تأكيد المدح بما يشبه الذم هو :

١- (أن يستثنى من صفة مدح مثبتة صفة مدح أخرى على تقدير عدم دخولها فيها).

٢- (أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الممدوح صفة مدح بتقدير دخولها فيها).

معنى هذا الكلام : إنك حين ثنيت صفة المدح لشئ ثم تعقب بأداة استثناء، فإنك تخيل إلى السامع أنك ستثبت صفة ذم. فإذا خالفت مقتضى السياق وأثبت صفة مدح – كذلك. فقد أكدت المدح للممدوح من حيث خيلت للسامع أنك ستذم.

وقول النابغة الجعدى المتقدم شاهد على هذا. ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: (أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش).

فقوله عليه السلام (أنا أفصح العرب) صفة مدح مثبتة له، وقوله: (بيد أنى) يشعر بأن الكلام سيئول إلى إثبات صفة ذم. ولكن جاء قوله عليه السلام (من قريش) مدحاً ثانياً. لأن النسب إلى قريش، وهى أفصح قبائل العرب، تأكيد لفصاحة النبى عليه السلام بما يشبه الذم.

لأن أصل الكلام فى هذا النوع أن يكون الاستثناء فيه منقطعاً، يعنى أن يغاير ما بعد الأداة ما قبلها. وما قبلها مدح. فكان الأصل أن يكون ما بعدها ذماً. لكنه بقى متصلاً فصار الجزءان مدحاً كما ترى. والذم فى مثل هذا الأسلوب من حيث ذكر أداة الاستثناء فحسب دون وقوف السامع على حقيقة ما بعدها. وهو عند العلم به يزول شبه الذم الذى حدث بمجرد أن سمع الآداة. إذ لا ذم فى الواقع.

وأما النوع الثانى فشاهده قول النابغة الذبيانى:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فقوله: لا عيب فيهم (نفى لصفات العيب عنهم، وإتيانه بأداة الاستثناء (غير أنهم) يشعرك بأنه سيثبت لهم (عيباً) ولكنه فاجأك بعد وخدعك حيث قال: بهن فلول ...) لأن هذه العبارة وصفتهم بالشجاعة وهى مدح وليست عيباً. فأكد لهم المدح بما يشبه الذم.

وقالوا . إن هذا النوع – يعنى الثانى أفضل من الأول. لأن التأكيد فيه من وجهين:

١- أحدهما أنه كدعوى الشئ بنية.

٢- وثانيهما : أن الأصل فى الاستثناء أن يكون متصلاً فإذا نطق المتكلم بأداة الاستثناء توهم سامعه أن ما سيأتى بعدها مخالف لما قبلها. فيكون شيئاً من صفة الذم. وهذا ذم. فإذا أثبت بعدها صفة المدح تأكد المدح لتكراره ولهذا الفن موقع طريف فى النفوس لما فيه من خلابة وخداع برئ.

ومعنى أنه كدعوى الشئ ببينة . ففى قول النابغة الذبيانى السابق يكون التقدير إذا كانت الفلول فى السيوف من أثر المعارك عيباً ففيهم ذلك العيب وتعليق العيب على المحال محال فيثبت خلوهم من العيب (١).

أما النوع الأول فإنه يؤكد المدح من جهة واحدة، وهى أن أصل الاستثناء فيه أن يكون منقطعاً. فلما بقى على حاله من الاتصال أفاد هذا تأكيد المدح من وجه واحد.

قالوا : ولا يفيده من الوجه الثانى الذى هو ادعاء الشئ ببينة. فلا يقدر أن أصل الكلام فى حديثه عليه السلام:

(أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش) : إذا كان النسب إلى قريش مخلاً بالفصاحة فذلك عيبى. وقد نصوا على أن تقدير الكلام على هذا النهج ليس معتبراً عند البلغاء. ولو جاز لكان ركيكاً (٢).

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم نوع ثالث هو أن يؤتى بالاستثناء مفرغاً، ويكون العامل مما فيه معنى الذم، ويكون المستثنى مما فيه معنى المدح. وذلك كقوله تعالى حكاية عن سحرة فرعون:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ لأن معنى (تنقم) تعيب. وهذا لا

يزيل شبهة الغلو المدعاة. راجع كشاف الزمخشرى حـ٢ ص٤٤٠ .

(١) يقدر بعض شراح التلخيص بأن المتكلم عند ما نفى من صفات العيب أتى بأداة الاستثناء ليضع بعدها عيباً، ولما لم يجد عيباً يصح استثناؤه اضطر لاستثناء صفة مدح ليصح الكلام. الشروح حـ٤ ص٢٩٣ .

(٢) راجع الشروح حـ٤ ص٣٩٢ .

يقع إلا على واحد من العيوب. فلما سلط على الإيمان بآيات الله. وهو من أجل المناقب والمفاخر كان تأكيداً للمدح بما يشبه الذم. لأن المستثنى فيه معمول الفعل الذى فيه معنى الذم. وهذا النوع راجع إلى النوع الثانى الذى هو استثناء صفة مدح من صفة ذم منفية. مع اختلاف النوعين فى التركيب اللفظى. وتقدير الكلام:

لا عيب فينا تعيبه علينا سوى إيماننا بآيات الله إن كان الإيمان يمثل هذا عيباً. فهو عيب فينا [1].

ومثل الآية الكريمة قوله تعالى ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا** ﴾.

ومثلهما أيضاً قوله تعالى فى قصة أصحاب الأخدود:

﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ بيد أن النقم فى قصة أصحاب الأخدود يختلف عن سابقيه، لأنه فيهما أخذ باللسان. وفى قصة أصحاب الأخدود قد أقترن الأخذ باللسان بالحرق فى النيران.

وتجرى أداة الاستدراك مجرى أداة الاستثناء فى هذا الفن. فقول بديع الزمان الهمذانى يمدح:

هو البدر إلا أنه البحر زاخر سوى أنه الضرغام لكنه الوبل [2]

فيه تأكيد للمدح بما يشبه الذم فى قوله (لكنه الوبل) لأن أداة الاستدراك توهمك أن الشاعر سيثبت بعدها صفة من صفات الذم، لأن ذلك هو شأن الاستدراك أن يكون ما بعده مخالفاً لما قبله. ولما كان ما قبل (لكن) صفة مدح

---

(١) فهو نظير (ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول ..).

(٢) الوبل: المطر الغزير. وقد جمع الشاعر بين ثلاث صور من تأكيد المدح بما أشبه الذم. وهذا من شأنه أن يجعل السامع على علم بما سيثبته المتكلم بعد الاستثناء أو الاستدراك ما دام قد عرف طريقته فى الصورة الأولى من أنه يستثنى صفات مدح. وهذا – فيما أرى – يقلل من خلابة الصور المعطوفة.

اقتضى ذلك أن ما بعدها سيكون صفة ذم. وقد خالف الشاعر هذا القانون واستدرك بها صفة مدح أخرى لأن غرضه هو تأكيد المدح بما يشبه الذم وهذا ظاهر.

وتقول أنت : (الصدق نافع لكنه منج) فتمدح الصدق حيث أثبت له صفة النفع، فإذا قلت (لكنه) توهم السامع أنك ستذكر صفة مخالفة لما قبلها فيها معنى الذم. وهذا ذم. فإذا قلت (منج) زال وهم سامعك وبقى الكلام على أصالته من استمرار المدح. فيتأكد به المدح الأول. ويتحقق ذلك فى قولك هذا تأكيد المدح بما أشبه الذم.

* * *

٧- تأكيد الذم بما يشبه المدح

هذا النوع من البديع هو قسيم سابقه وعلى سننه يسير. وله ثلاثة أضرب مثله.

الضرب الأول : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشئ صفة ذم بتقدير دخول صفة الذم المستثناة فى صفة المدح المنفية.

وعلى ذلك جاء قول الشاعر :

فإن من لامنى لا خير فيه سوى وصفى له بأخس الناس كلهم

الشاعر نفى الخير عمن يلومه فقال: لا خير فيه. ثم أتى بـ (سوى) وهى أداة استثناء فأوقعت فى الوهم أنه يثبت بعدها صفة مدح جرياً على سنن الاستثناء. لكنه خالف فأثبت صفة ذم فقال: أخس الناس والأخسية ليست من الخير.

وتقدير المعنى هكذا :

لا خير فيه سوى أنه من أخس الناس . فإذا كانت الأخسية خيراً – وهذا محال، ففى لائمى. فعلق قيام الخير به على أمر محال. فكان قيامه به – أيضاً –

محالاً. وهذا الضرب شبيه بالضرب الأول من تأكيد المدح بما أشبه الذم من حيث:

(أ) أنه كدعوى الشئ ببينة.

(ب) أن الأصل فيما بعد أداة الاستثناء مخالفته لما قبلها. ونفى صفة المدح ذم. فإذا أثبتت صفة ذم بعد أداة الاستثناء حصل التأكيد على الوجه الثانى.

الضرب الثانى : أن يثبت للشئ صفة ذم ، وتعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له. وهذا كقولك:

(السفاح خائن إلا أنه مجرم) فتثبت له الخيانة أولاً. ثم تأتى بأداة الاستثناء فتشعر سامعك أنك ستثبت له صفة مدح بعدها. وإذا بك تذمه ثانية فتثبت له (الإجرام) بالاعتداء والقتل مثلاً. وهذا ذم بعد ذم فيتأكد الذم الأول بذكر الذم الثانى وإن توسطتهما أداة الاستثناء.

وتقول أيضاً : (الشيوعية وهم حالم إلا أنها دجل وتضليل) ذممتها أولاً بأنها وهم. وأشعرت سامعك بذكر أداة الاستثناء أنك ستمدحها. فإذا بك تذمها من جديد. وبهذا تأكد ذمك الأول لها.

الضرب الثالث : أن يؤتى من أول الأمر بالاستثناء المفرغ كأن تقول (لا يحمد من إسرائيل إلا لؤمها) فقد نفيت الحمد عن إسرائيل ثم أتيت بالاستثناء وجعلت ما بعدها معمولاً لصفة المدح المنفية فكأنك قلت لا يحمد من إسرائيل إلا لؤمها إن كان اللؤم يحمد فى حياة الإنسان. ومعنى هذا أن إسرائيل معراة من كل فضيلة تستحق الحمد. فإن طلب أحد مدحها فليس فيها موضع للمدح سوى اللؤم إن جاز هذا.

والاستدراك فى تأكيد الذم بما أشبه المدح مثل الاستثناء. وعليه جاء قول الشاعر:

يا رسولا أعداؤه أرذل النا س جميعاً لكنهم فى الجحيم

وتحليل البيت يسير عليك قياساً على ما تقدم.

مقارنة بين النوعين :

تأكيد المدح بما أشبه الذم ، وتأكيد الذم بما أشبه المدح صنوان لأصل واحد ومناهجهما واحدة مع اختلافها فى الغرض. ولعلك لاحظت أن تأكيد المدح بما أشبه الذم أكثر وروداً من تأكيد الذم بما أشبه المدح. فكل أمثلة تأكيد المدح بما أشبه الذم أمثلة مأثورة. وقد كان أشرفها ما ورد فى القرآن الكريم، وهذا يدل على فضل تأكيد المدح على نظيره.

أما تأكيد الذم بما أشبه المدح فأمثلته المأثورة نادرة. ولذلك فلا مفر من أن يمثلوا له بأمثلة مصنوعة. وهذا يدل على أن الشعراء لم يطرقوا هذا الفن كثيراً وإنما مسوه برفق وحنان.

* * *

٨- تجاهل العارف

الكلام فنون . ومن فنونه ما يسمى بتجاهل العارف. أو سوق المعلوم مساق غيره. وذلك كأن تسأل عما هو معلوم لك. أو تتحدث عن المعرفة بالفكرة، أو تتردد بين أمرين فى شأن، وأنت تعلم أنه لأحدهما.

ولما كان ذلك خلافاً للأصول المقرّرة فإن تجاهل العارف، أو كما يسميه السكاكى سوق المعلوم مساق غيره [1] لابد فيه من نكته تجعل الصيرورة إليه وترك الأصل هى الأولى بالاعتبار.

وإليك بعض الاعتبارات المناسبة التى ترجح الخروج عن الأصل أو النكت التى من أجلها يخرج العالم كلامه على خلاف علمه به.

---

(١) إنما لجأ السكاكى إلى هذا التعريف لأن هذا الفن قد ورد فى القرآن الكريم فرأى أن التعريف الأول : تجاهل العارف. لا يليق. وإنما اللائق هو ما أثبته.

١- التوبيخ : قالت ليلى بنت طريف الشيبانى ترثى أخاها الذى قتل فى عهد هارون الرشيد :

أيا شجر الخابور [١] مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

الشاعرة تفترض أن مأساة أخيها هى مأساة الحياة كلها. أنسها وجنها. أرضها ونباتها ومن أجل ذلك أنكرت على الأشجار أن تورق، لأن الإيراق ينافى الحزن. ولذلك استباحت الشاعرة لنفسها أن تدعى أن جزع الأشجار على مقتل أخيها أمر لا مرية فيه. فعلام إذن يورق ؟

الشاعرة تعلم أن الشجر لا يجزع . ومقتضى هذا العلم هو الكف عن سؤاله ولومه. ولكنها أنزلت نفسها منزلة من لا يعلم وسألت الشجر - مجازاً - عن سبب إيراقه. والقصد من هذا السؤال هو التوبيخ. توبيخ الشجر، ثم توبيخ غيره ممن لم يجزع من البشر. وذلك لأن الشجر ما دام قد توجه إليه اللوم لعدم جزعه، وهو لا يعقل، فأولى، أن يلام عليه غيره من البشر وهو يعقل.

٢-التدله فى الحب : قال الشاعر [٢] :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

الشاعر يعلم أن ليلى من البشر ، لكنه تجاهل هذه الحقيقة وأنزل نفسه منزلة الجاهل بها متوجها بسؤاله إلى الظبيات مستحلفاً لهن بالله أن يخبرنه بالحقيقة. ليظهر أن حبها (ليلاه) أفقده صوابه فلم يدر أبشراً هى أم من الظباء.

وفى هذا تشبيه ضمنى لليلى بأنها ظبية وإلا لم يشتبه عليه أمرها بالظباء.

٣-المبالغة فى المدح : قال البحترى يمدح :

ألمع برق سرى أم ضوء مصباح أم ابتسامتها بالمنظر الضاحى [٣]

---

(١) الخابور : نهر بديار بكر.

(٢) نسب البيت إلى مجنون ليلى. كما نسب إلى العرجى. فهو إذن مجهول القائل.

(٣) الضاحى : الظاهر.

الشاعر يعلم أن الذى سرى هو ابتسامتها، لكنه تجاهل هذا مبالغة فى المدح وادعى أن الأمر قد اشتبه عليه بين البرق اللامع، والمصباح الساطع والثغر الباسم. ولا شك أن الشاعر قد شبه ابتسامة الممدوحة بالبرق وضوء المصباح كليهما ما دام الأمر قد تردد بين هذه الصفات المذكورة. لأن كلا من المذكورات صالح عنده ليكون الحقيقة المشاهدة.

٤ - **المبالغة فى الذم** : قال زهير بن أبى سلمى :

وما أدرى ولست أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء ؟ (١)

زهير يعلم أن آل حصن رجال ، لكنه تجاهل هذه الحقيقة المعلومة وتظاهر بأن الأمر قد اشتبه عليه. وهذا ذم أبلغ ما يكون الذم. إذ لم يختلط عليه الأمر إلا لأن سلوك رجالهم كان كسلوك نسائهم على حد قول الشاعر:

فمن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب (٢)

هذا ، وقد يقف بك التمثيل من الشعر عند هذا الحد، كما هو الغالب فى كتب البلاغيين قدماء ومحدثين. والحق أن هذا باب واسع كثير النكات وإليك بعض نكات أخرى مع أمثلتها لم ينصوا عليها مع أنها من صميم هذا الفن على الحد الذى وضعوه له، أذكرها لك قبل التعرض لأمثلة القرآن الحكيم فى هذا المجال.

٥ - **إظهار الشكوى** . ومن أمثلته قول الشاعر :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة أيا جارتا لو تعلمين بحالى ؟!
معاذ الهوى ما ذقت طارفة النوى ولا خطرت منك الهموم ببالى
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم تعالى

---

(١) قوم : رجال. والدليل على ذلك مقابلته بالنساء فى عجز البيت. وقد جاء هذا فى القرآن الكريم: ﴿ **لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء** ﴾.

(٢) يعنى أن رجالهم كنسائهم سواء بسواء.

الشاعر فى هذه الأبيات يبث شكواه فى مناجاته للحمامة التى ناحت بقربه وهو يعلم أن الحمامة عن فهم ما يقول بمعزل، لكنه تجاهل وأخرج الكلام كما لو كانت الحمامة تعقل وتعى ما يقول. وغرضه من ذلك إظهار الشكوى ولواذع هواه.

٦- **التمنى** : ومن أمثلته قول الشاعر :

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلى إلى من قد هويت أطير

الشاعر يخاطب جماعة من الطير تحلق فى الفضاء، ويسألها هل من بينها واحدة تعيره جناحها لعله يطير إلى بلد محبوبه البعيدة الشقة، فيهدأ أو ينعم بقربها.

وهو – لا محالة – يعلم أن الطير لا يفهم سؤاله، وإذا فهم – على فرض وقوع ذلك – فإنه لن يستجيب لطلبه ولن يعيره جناحاً. هو يعلم كل هذا . .

ولكنه تجاهل ، وغرضه من هذا إظهار التمنى وأنه لا يرضى بالبعد عن من أحب.

٧ – التغنى بالذكريات الماضية وإظهار الحزن على المحبوب. وفى ذلك يقول أبو عباده البحترى :

أأنت ديار الحى أيتها الربى الـ أنيقة أم دار المهى والنعائم
وسرب ظباء الوحش هذا الذى أرى أمامك أم سرب الظباء النواعم
وأدمعى اللاتى عفاك انسجامها وأبلاك ؟ أم صوب الغيوث السواجم
وأيامنا فيك اللواتى تصرمت مع الوصل؟ أم أضغاث أحلام حالم

الشاعر يسأل الديار هل هى ديار الحى التى كان يقطنها أحباؤه ؟ أم هى ديار المهى والنعام ؟.

---

(١) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى حـ١ ص٥٣٩ – تحقيق السيد أحمد صقر.

وهل ما يراه أمامها سرب ظباء الوحش ؟ أم سرب الغانيات النواعم المشبهات بالظباء ؟...

وهل الذى عفاها وأبلاها دموعه الباكية ؟ أم هطول الغيث عليها ؟

وهل تذكر أنه عاش فى ربوعها أياماً ينعم فيها بالقرب من أحبائه ثم تصرمت تلك الأيام ؟ أم ذلك كان حلماً يراه الحالم ؟

سأل الديار كل هذا وهو يعرف أن الديار لا تسمع ولا تجيب. ولكن ذكريات الماضى هى التى هيجت كوامن شوقه فراح يسأل دون طمع فى الإجابة لأنه:

أ – يعرف حقيقة ما يسأل عنه.

ب – ولأن مسئوله بمعزل عن السمع، بله الجواب.

٨ – إظهار الوفاء . قال البحترى يدعو للديار بالسقيا :

سألت الغوادى ملحفًا فى سؤالها

وناشدتها فى سقى برقة نهمد

الغوادى : السحب. وهى تسير كما قدر الله لها . والشاعر يعرف هذا لكنه سألها وألحف فى السؤال أن تكون وجهتها برقة تهمد وهى ديار حبه القديم البالى.

سألها وهو يعلم أن مثلها لا يجيب. والذى حمله على هذا هو الدعاء لديار محبيه القدامى بالسقيا وإظهاراً للوفاء وأنه باق على عهدهم لم يتغير بعد أن لفتهم الأرض ولعبت بهم ريب المنون.

ولا يقف بك التمثيل عند هذا الحد . فأدبنا العربى حافل بمثل هذه الصور التى تعدد نكاتها كلما نظرت فيما جاءت به قرائح الشعراء.

تلك بعض نماذجه فى الشعر . فهل فى القرآن الكريم من هذا الفن شئ. ذلك ما سوف تراه الآن:

وقفه مع البيان القرآنى :

تحرج السكاكى – كما تقدم – أن يسمى هذا الفن (تجاهل العارف) لوجود أمثلة منه فى بيان القرآن. وسماه: (تأدبا) –: سوق المعلوم مساق غيره. ورأى فى هذا التعريف لياقة لاغضاضة معها عندما يمثل لهذا الفن فى القرآن الكريم.

وإذا تتبعنا ما يمكن حمله على هذا الفن من القرآن وجدناه:

أ – إما سؤالا عن أمر معلوم.

ب – أو تردد الأمر بين شيئين مع أن المعلوم للمتكلم أحدهما. وكلا النوعين وارد فيه لاعتبار مناسب. هذا فيما يستند إلى كلام الله. وليس يتعلق بما يحكى الله عن الغير والسؤال عن المعلوم، أو التردد – فى الظاهر – بين أمرين مع الجزم بأحدهما لاعتبار مناسب لا مساس لأحدهما بما استقر عليه العلم من الصفات الواجبة لله. بل هما أمران قد يقتضيهما المقام وهذا هو الذى حدث فى القرآن الكريم وقد ذكروا لذلك بعض الأمثلة. منها قوله تعالى:

١– ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾؟ قالوا : إن النكتة فى هذا الإخراج هى الإيناس لما شعر موسى بالخوف والرهبة سأله الله هذا السؤال ليزيل ما عنده من رهبة ويدخل الإيناس على قلبه الخائف الوجل.

٢– وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) وقال البديعيون أن السر فى هذا الإخراج هو التعريض بالمخاطب، لأن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين هم الذين على هدى. ومن عداهم – يعنى المخاطب – هو الذى فى الضلال المبين.

٣ – وذكروا قوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

---

(١) مسمى بعضهم هذه الآية : للإيهام على السامع. وبعضهم يقول أنها من باب إرخاء العنان للخصم ليسائل نفسه فيهتدى إلى الصواب.

وقالوا إن السر فى هذا الإخراج هو التحقير من شأن النبى كما زعم الكفار.

وإنما تدخل هذه الآية فى نماذج هذا الفن لأن المشركين كانوا يعرفون حقيقة الرجل الذى يتحدثون عنه، وهو محمد عليه السلام، ومع علمهم به فإنهم تحدثوا عنه حديث من لا يعرفه فأتوا به نكرة ووصفوها بما استبعدوه عنه من أوصاف هى صلب العقيدة التى كان ينادى بها عليه السلام.

وجل الكاتبين فى البديعيات يقف عنه هذا الحد من الآيات. وليس ذلك بكاف، ولا هو الواقع. بل لك أن تسلك كل صور الاستفهام غير الحقيقى فى هذه السلسلة الوضيئة. فمثلاً قوله تعالى:

١- ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** ﴾. [المائدة: ١٠٩].

الله عالم بكل شئ. ما كان. وما هو كائن. وما سوف يكون. فكيف يسأل الرسل يوم القيامة عما أجيبوا به ممن أرسلوا إليهم، وهو بذلك أعلم، كما قالوا فى الجواب: ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** ﴾.

هذا السؤال - إذن - جوابه معلوم لله، فليس المطلوب به أن يعلموه - سبحانه - بعلم ليس حاصلاً له.

فما الاعتبار المناسب الذى من أجله سأل الله - وهو أعلم - رسله عما هو معلوم له بداهة.

الاعتبار المناسب فيه - والله أعلم - بيان أهوال القيامة لدرجة أن الرسل وهم فى مأمن من شروره يذهلون فينسون ما هو أخص رسائلهم. وعلى هذا فإنك تستطيع أن تقرر هذه النكتة أو الاعتبار المناسب فتقول:

قد يسأل عما هو معلوم - فى البيان القرآنى - لبيان أهوال القيامة وغرابة أهوالها.

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

٢- وقال سبحانه :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ ؟

سبب امتناع إبليس عن السجود لآدم معروف لله عالم الغيب والشهادة وقد صرح به القرآن قبيل هذه الآية مباشرة حيث قال : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾.

السؤال - بداهة - عن معلوم للسائل. فما سره إذن ؟

السر فيه - والله أعلم - التسجيل على إبليس بالمعصية. ليجيب بما أجاب فيستحق جزاء ما صنع.

وهذه نكتة أخرى تثبتها فى ثقة للسؤال عن المعلوم فى البيان القرآنى وهى : التسجيل على المسئول بما صدر منه.

٣ - وقد تكون النكتة فى السؤال عن المعلوم فى البيان القرآنى هى التنبيه على خطأ وقع فيه المخاطب فيقلع عنه : وذلك تراه واضحاً في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ لأن الله عالم بما غر الإنسان. فليس هو فى حاجة إلى أن يعلم بذلك سبحانه وإنما القصد - والله أعلم - هو تنبيه المخاطب للخطأ السادر فيه لينتهى عنه.

٤- وقد تكون النكتة منه التبرئة للمسئول وقطع الحجة عن الآخرين. وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾.

فقد ترتب على هذا السؤال الإجابة عليه بالنفى – والله يعلم ذلك – وترتب على هذه الإجابة أمران :

(أ) تبرئه عيسى عليه السلام من القول المنسوب إليه .

(ب) قطع الحجة على من يعتقد ذلك من الناس .

هذا .. ولا أطيل عليك وإنما الذى أحب أن تقف عليه أن لهذا الفن فى البيان القرآنى دوراً هاماً . ولا غضاضة لأنه يحمل أسراراً هى من البلاغة بمكان . فدونك القرآن فهو موردك الشهى العذب .

* * *

٩ - التجريد

قال امرئ القيس فى معلقته المشهورة :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل (١)

الرواية على أن امرئ القيس لم يكن معه أحد حين قال هذا الكلام سوى جواده الذى يركبه . ولذلك اختلفت الآراء حول تثنية الخطاب فى قوله : قفا .

فقيل : أخرج خطاب الواحد – وهو نفسه – مخرج خطاب الاثنين لأن هذا مسلك معروف عند العرب . وهو نظير قول الشاعر :

فإن تزجرانى يا ابن عفان أنزجر وإن ترعيانى أحم عرضاً ممنعاً

حيث خاطب الواحد – ابن عفان – خطاب الاثنين .

وقيل : أنه كرر لنفسه الأمر بالوقوف مرتين : قف قف . فحذف أحد الفعلين وجعل علامة التثنية دلالة على تكرار الأمر نفسه لا تكرار المأمور .

---

(١) السقط : منقطع الرمل . واللوى : رمل كذلك يعوج ويلتوى . الدخول وحومل موضعان .

وقيل : أن الأصل : قفن بنون التوكيد الخفيفة. وهذه كثيراً ما تقلب ألفاً. فالألف فى (قفانبك) منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة، وليست للتثنية [١].

وقيل : أن هذا من باب التجريد ، وهو أن يتخيل الواحد من نفسه شخصاً آخر فيجرده منها ويخاطبه على هذا التقدير. وامرئ القيس إنما سلك فى هذا القول مسلك التجريد.

والذى يهمنا من هذه الآراء هو الرأى الأخير، لأنه المدخل لموضوعنا. وقد بان لك على الجملة ما هو التجريد. ولكن ما هو التجريد عند البديعيين من علماء البلاغة ؟ لقد عرفوا التجريد فقالوا أنه:

(انتزاع الفرد الكامل من ذى صفة للدلالة على كمالها فى الموصوف) [٢]

ففى المثال السابق جرد الشاعر من نفسه شخصاً آخر مثله فى الإدراك وطلب منه أن يبكى معه على المنازل الخوالى التى كانت عامرة بالأحبة.

وفى كل أسلوب تجريد فلابد لك من ملاحظة أربعة أمور هى:

(أ) المجرد منه – وهو الموصوف.

(ب) المجرد ، وهو الفرد الكامل الذى انتزعته من الموصوف.

(حـ) الصفة المراد بيان كمالها فى الموصوف.

(د) كمال تلك الصفة.

فإذا قلت : لى من أحمد صديق مخلص. فأحمد هو المجرد منه، وهو الموصوف.

وصديق هو المجرد. والصفة هى الصداقة المخلصة. وكمال تلك الصفة هو الذى سوغ لك ودعاك إلى أن تجرد من أحمد وهو صديقك المخلص صديقاً آخر. يعنى تنزل صداقته منزلة صديق آخر كأن الصداقة أصبحت شخصاً آخر مستقلاً

---

(١) راجع شرح المعلقات السبع للزوزنى ص٧ .

(٢) راجع شروح التلخيص حـ٤ ص ٣٤٨ .

له كل مقومات الشخصية المستقلة. وما صلحت صداقة أحمد لهذا التشخيص إلا لأنها كملت فيه كمالاً كاملاً. وهذا هو معنى المبالغة فى الصفة التى هى مبنى التجريد.

صور التجريد : يأتى على صور مختلفة وهى :

١- أن يكون بمن (التجريدية) الداخلة على المجرد منه أو إن شئت فقل المنتزع منه ومثاله ما تقدم. وكقول الشاعر متغزلاً :

أعانق غصن البان من لين قدها وأجنى جنى الورد من وجناتها

فقد بالغ الشاعر وجرد من لين قدها غصن البان، وبالغ فى حمرة خدها وجرد منها الورد. ومن التجريدية داخلة على المنتزع منه وذلك واضح.

٢- أن يكون بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه وإن شئت فقل المجرد منه كقولك : لأن سألت حاتماً لتسألن به البحر.

فحاتم هو مرجع الضمير فى (به) ولذلك كانت الباء داخلة على المنتزع منه. والصفة - المبالغ فيها هى الكرم، والمجرد هو البحر وبذلك ظهر كمال الصفة فى الموصوف حتى صح تجريد البحر منه. ليكون مثله فى الكرم.

٣- أن يكون بدخول (باء) المعية على المنتزع. وذلك كقول الشاعر:

وشوهاء تعدوبى إلى صارخ الوغى بمستلئم مثل الفنيق المرحل (١)

يقول : أن فرسه المدربة على أعمال الحروب تسرع به إلى ميدان القتال ومعه - يعنى نفسه - مستلئم بآلة الحرب خبير بفنونها. جرد من نفسه شخصاً آخر شجاعاً للدلالة على كمال استعداده للحرب.

٤- أن يكون بدخول (فى) على المنتزع منه ومثاله قوله تعالى :

﴿ **لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ** ﴾ الحديث فى الآية الكريمة عن ﴿ **جَهَنَّمَ** ﴾ وقد جرد

---

(١) شوهاء : عبوسة. مستلئم لابسى آلة الحرب. الفنيق : الفحل. المرحل الكثير الغزو.

منها داراً أخرى مثلها مبالغة فى كمال صفتها. فكأن العصاة والمشركين يعذبون فى دارين لشدة ما يلقونه من عذاب وإيلام. وليس فى دار واحدة.

٥- أن يكون بوساطة الكناية كقول الأعشى يمدح:

يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأساً بكف من بخلا

جرد الشاعر من الممدوح شخصاً كريماً آخر حيث قال: ولا تشرب بكف ... ولما كان الممدوح لا يشرب بكف أحد، كما هو الشأن، كان التجريد للمبالغة فى كمال الصفة.

٦- أن يكون بمخاطبة المرء نفسه. ومنه قول امرئ القيس المتقدم: قفا نبك. ومنه قول عمرو بن الاطنابة يخاطب نفسه:

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

خاطب: نفسه ناصحاً لها بالثبات والإقدام. بدل الخوف والإحجام.

وقال امرئ القيس يلوم نفسه على الجزع وترك الصبر على فراق الأحبة:

تطاول ليلك بالاثمد ونام الخلى ولم ترقد

يعنى كان الأولى بك أن يكون لك صبر واحتمال فيخلو ليلك من الهم وتنعم به كما ينعم الخلى.

وقد يخاطب الإنسان نفسه بقصد حسها وتحريضها على أن تفعل شيئاً وذلك كقول المتنبى:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

يعنى: إذا لم تكن صاحب مال تتكرم به. فليكن نطقك كريماً، وهذا فى مقدورك إن شئت.

٧- وقد يكون التجريد بدون وساطة حرف ولا كناية. كقول الشاعر:

ولأن بقيت لأرحلن بغزوة تحوى الغنائم، أو يموت كريم

أراد بالكريم : نفسه. ومن هنا كان التجريد. يعنى : أنه مخلوق إما للغزو والغنم، أو للموت فى ميادين القتال.

وإلى هنا بان لك :

١- إن التجريد نوع من أنواع المبالغة فى الوصف.

٢- إنه يكون إما بوساطة حرف الجر : من - فى - الباء. وتدخل ثلاثتها على المنتزع منه إلا إذا كانت الباء للمعية فتدخل على المنتزع. وإما بوساطة الكناية. أو بمخاطبة المرء نفسه. وقد يكون بدون وساطة.

هذا . وفى التجريد خلاف بين العلماء . هل هو من مباحث البديع أو البيان إلا أنه بمباحث البديع أولى. ومن قال أنه من البيان قال مرة أنه تشبيه وأخرى أنه استعارة تصريحية. وثالثة أنه استعارة بالكناية.

* * *

١٠- مراعاة النظير

قال أبو عبادة البحترى يصف جماعة من الإبل أهزلها السير:

كالقسى المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار

يعنى ضمرت أجسامها حتى أصبحت كالقسى التى هى جمع قوس أو هى كالأسهم المبرية. بل هى مثل الأوتار.

فقد ذكر الشاعر فى هذا الوصف ثلاثة ألفاظ بينها تناسب وهى:

القسى - الأسهم - الأوتار. وإذا تأملت وجدت هذه الألفاظ الثلاثة ترتبط بعمل واحد هو الصيد أو القتال. وأنها - لذلك - تجمعها فى الشعور والذهن منطقة واحدة من حيث أنك إذا أمكن لك تصور واحد منها سهل عليك تصور البواقى.

ومثلها فى عصرنا الحديث : الطائرة - الدبابة - المدفع - الصاروخ وهكذا